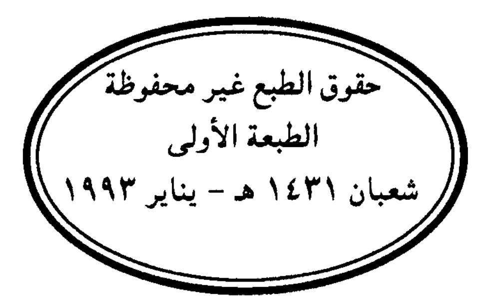


أبو إسلام أحمد عبد الله

عندما حكم الصليب

بيت الحكمة
للإعلام والنشر والتوزيع



اسم الكتاب : عندما حكم الصليب

اســم المؤلف : أبو إسلام أحمد عبد الله .

تصميم الغلاف : مجدى الطويل

الإخراج الفنى : مركز كمبيوتر بيت الحكمة

رقــم الإيــداع : ٢٥٤٠ / ١٩٩٣

الترقيم الدولى : 3 - 05 - 5271 - 977

النشر والتوزيع : بيت الحكمة للإعلام والنشر والتوزيع

١٠١ شارع القائد - منشية الصدر - القاهرة

هاتف ٢٨٣١٧١٢ - تليفاكس ٢٨٣١٥٥٢

فهرس الكتاب

المقدمـــة

ليس صحيحاً أن الحروب ماضٍ وانتهى ، أو أنها أحداث عفا عليها الزمان ، لأن الكاثوليكية المرعبة ، أتت إلينا من جديد ، مع السنوات الأخيرة التى سقطت معها دولة الخلافة الإسلامية ، وظلت فى كمون تمارس دعوتها فى سرية وكتمان، مع الكنائس الكثيرة الأخرى التى تتناثر على وجه مصر بكثافة .

ومع معاهدة الصلح بين السادات والصهيونية ، تحت مظلة الفرعون الأمريكى ، أملت الأحداث واقعاً جديداً للكنيسة الكاثولوكية ، ثم للكنائس الإنجيلية والبروتستانتية بخاصة ، والغربية عموماً فى مصر ، يسمح للجميع أن يعمل فى كل مجالات الحياة السياسية ، والثقافية ، والفكرية ، والدعوية تحت ستار ماأسموه : (التنمية)[1] .

وإن كانت الدائرة الآن تدور بين هذه الكنائس (مجتمعة تحت راية الصليب اليوم) من ناحية ، وبين المسلمين من ناحية أخرى ، فإن استقراء التاريخ يؤكد على أن الكنائس الصليبية أبداً لن ترضى بهذا التواجد الهامشى لها فى المجتمع ، ثم أنها لن ترضى فيما بينها إلا البقاء الأوحد .

---

(١) تفاصيل كاملة وموثقة حول هذا النشاط فى كتاب «النصارى والتنصير فى مصر» للمؤلف تحت الطبع .

بمعنى أن الكاثوليكية لن ترضى ببقاء منافسين لها من ملل صليبية أخرى ، ولن يرضى الإنجيليون ببقاء منافسين لهم من ملل صليبية أخرى ، وهكذا ، بمعنى أن هناك دائرة متوهجة أخرى - غير التى تضطرم بين بعض الشباب المسلمين ، وبعض قادة الكنيسة فى عمومها - بين أبناء الكنائس بعضهم البعض، ومن أجلى مظاهرها تلك القرارات المتتابعة من الكنيسة المصرية الأرثوذكسية بطرد هذا ، وإنذار ذاك ، ومنع ذلك من الكرازة (الدعوة) ، إلى غير ذلك من القرارات التى بلغت الذروة عندما نشرت الكنيسة إعلاناً بصحيفة الأهرام ، العام الماضى (١٩٩٢) تتبرأ فيه من أحد المؤتمرات العلمية التى نظمها قس[١] بارز بقاعة المؤتمرات الدولية بمدينة نصر ، دون إذن منها أو موافقتها .

وليس هذا كله داخل موضوعنا ، وإنما أشرت إليه ؛ للتنبيه إلى خطر هذه الكنائس فى مصر، وماخترت إلا واحداً من الأمثلة الشائعة للحرب بين هذه الكنائس - وهى كثيرة لاحصر لها - .



---

(١) هو الأب دانيال البراموسى الذى حقق شعبية ضخمة لدى شباب الكنيسة المصرية من الإسكندرية حتى أسوان ، قد تم إبعاده عن مصر إلى سويسرا تقريباً ، بقرار من الكنيسة .

ومخطئ من يحسب أن بداية الحروب الصليبية على بلاد المسلمين كانت مع تلك الحملة ، التى شدوا إليها الرحال من ناحية بلاد الشام

مخطىء من يربط بين ضعف الخلافة الإسلامية ، وبين التحرك الصليبى نحو المنطقة .

فذلك نوع من التجهيل والتدليس على العقل المسلم ، وعلى تاريخ المسلمين ؛ لأن الصليبية ، عرفها المسلمون منذ أن نزل الأمين «جبريل» على "محمد" الأمين ﷺ ؛ ليقول له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ .

منذ أن شاع الخبر ، وآمن به عشرات من القسس والرهبان الصالحين ، العارفين بحقيقة رسالة التوحيد ، التى بشر بها عيسى عليه السلام[١] .

منذ ذلك اليوم المبارك ، وعبدة الصليب مازالوا يصرون على شركهم ، رافضين لرسالة محمد ﷺ ، وتضيق صدروهم لامن المسلمين فحسب ، بل من إخوانهم الذى رفضوا إلا أن يعبدوا الله خالق المسيح وربه .

ومازال التاريخ يذكر لهم التعاهد مع التتار ؛ لإسقاط خلافة المسلمين فى المدينة ، فدلوهم على كل صغيرة وكبيرة ، خيانة للعهد الذى أبرموه مع المسلمين .

---

(١) راجع د . أحمد إبراهيم خضر : عيسى رسول الإسلام - بيت الحكمه / القاهرة ١٩٩٢ .

ومازال التاريخ يذكر يوم دخلوا القدس الشريف ، فجعلوا دماء المسلمين تجرى فى ساحة الأقصى ، والجثث أكوام فى الشوارع أصابها النتن .

ومازال التاريخ يذكر يوم دخل صلاح الدين محرراً للقدس من دنسهم ، فأمَّنهم على أنفسهم وكنائسهم ، تأسياً بعمر بن الخطاب أمير المؤمنين .

ويذكر التاريخ أيضاً ، يوم اجتاحت جحافل الصليب الفرنسى أرض سوريا ، فأقدم الجنرال الصليبى الحاقد (غورو) ؛ ليضع قدمه على قبر صلاح الدين قائلاً :

قم ياصلاح الدين ها قد عدنا .

إن الذى دعانى إلى إعداد هذا الكتاب - وليس تأليفه - هو مرور خمسمائة عام على ضياع الأندلس من أيدى المسلمين.

ففى يوم أن فتحها طارق بن زياد ؛ لم يؤذ نصرانياً ، ولم يهدم كنيسة ، ولم يسفك دماء خيل ، كما أنه لم يقطع شجرة، ونعم النصارى فى ظل شريعة الإسلام ، بما لم ينعموا به بين أهليهم ، وأبناء عقيدتهم طوال تاريخهم حتى اليوم .

فلما سولَّ لهم أبالسة الغدر أن يتآمروا على المسلمين ؛ ليحرموا هذه الأرض الطيبة من نعمة الإسلام ، والعودة إلى الشرك بالله ، تجلت وحشية الصليبيين وبشاعتهم ، بما ارتكبوه من مجازر ، وذبائح، واغتصاب ، وتقتيل ، وتهديم .

ولاتغيب عنَ الأعين والمسامع ، تلك الشهادة التى أدلى بها (غوستاف لوبون) ، فى كتابه الشهير «حضارة العرب» ، إذ يقول :

«كان أول مابدأ به «ريكاردوس» الإنجليزى ، أنه قَتَلَ من معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه ، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب ، مما أثار صلاح الدين الأيوبى النبيل ، الذى رحم نصارى القدس ؛ فلم يمسهم بأذى ، وأمدٌ «فيليب» و«قلب الأسد» بالمرطبات، والأدوية ، والأزواد أثناء مرضهما» .

● وذاك صليبى آخر يُدعى (يورجا) ، يقول :

«ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع ، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها ، وقد أسرفوا فى القسوة ؛ فكانو يبقرون البطون -بطون المسلمين- ويبحثون عن الدنانير فى الأمعاء».

● وهاهى حملة نابليون مازالت ماثلة ذكراها فى رءوس الآباء ، يوم اتخذ من أقباط مصر فرقة ألحقها بجيشه ؛ لتكون عوناً له على المسلمين .

● ومازال المسلمون فى لبنان حتى اليوم يعيشون مأساة التآمر الصليبى عليهم ، من خلال نصارى لبنان الذين مولوهم بالمال ، والسلاح ، وأدوات الدمار .

● ولم تجف بعد دماء السفاح الصليبى «چوليوس نيريرى» فى زنجبار ، يوم أباد (١٢٫٠٠٠) مسلم ، وألقى (٤٫٠٠٠) آخرين فى عرض البحر .

● وفى آسيا الوسطى اليوم ، وفى الفلبين ، وبورما ، والبوسنة ، يشهد تراب الأرض ، وتتحرك الجبال من هول جرائمهم .

كل ذلك طرح علىّ سؤالاً ، لم يكن ليطرح من قبل ، إلا فى مواجه المسلمين ، ألا وهو :

- ماذا لو حكم الصليب ؟

وفجأة وجدت نفسى كمن وضع جسده أمام تيار دموى جارف ، لم أكن أستشعره من قبل .. فكل التاريخ الصليبى فى مواجهة الإسلام والمسلمين ، قَتْل ، وذَبح ، وحَرَق ، ودَمار، وَخراب ، وانتقام ، وحقد أعمى ، وتعصب أهوج .

- ماذا لو حكم الصليب ؟

سؤال بشع ، أحسست أن الإجابة عليه ، كمن يدعو المسلمين إلى القنوط من رحمة الله ، فلمّا تذكرت أن الله قادر على أن يجعل كل الكون لو شاء (مسلماً) ، أدركت أن الذى نستشعره اليوم من تآمر دولى صليبى ، تحت راية بيت صهيون المدعو بـ (الأمم المتحدة)، إنما واحد من الابتلاءات والتدافعات التاريخية والعقدية ، التى يجب أن يتزود لها أهل الإسلام بالتقوى والتمسك بعروة الإسلام الوثقى التى لاانفصام لها .

فى هذا الوقت الذى يُذبح فيه المسلمون ، وتُغتصب فيه نسائهم ، وباتوا أهل الملّة الوحيدة على وجه الأرض التى تتعرض لهذا الإرهاب الدولى المنظم ، لا من الصليبيين فقط وحسب ، بل ومن عبدة البقر والنار .

أدركت أن الإجابة لابد أن نسترجعها من بين صفحات التاريخ ؛ لنخبر بها من ضلوا عن سواء السبيل .

ولاأحسب أنى بذلت جهداً كبيراً فى البحث عن الإجابة ، ولم أتصور أنه بإمكانى وضع الإجابة الكاملة للسؤال ، وإنما فقط ، رأيت أن أستدعى بعض الأمثلة السريعة ، على أن يُترك الملف مفتوحاً ؛ ليكمله قراء هذه الرسالة بأنفسهم فى الطبعات القادمة إن شاء الله ، من خلال مطالعتهم ، ودراساتهم ، للتاريخ والتفسير .

ولن أبخل فى أن تُنشر نتائج هذه المطالعات والدراسات بأسماء أصحابها ، إلا إذا رأوا غير ذلك .



وليدرك العارفون بالنفس البشرية ، أن خصومة الصليبيين للمسلمين أبداً لن تنتهى ، إلا إن شاء الله أن يهتدوا إلى التوحيد ، والاعتراف برسالة محمد ﷺ كما نعترف نحن بعيسى المسيح - عليه السلام - أو أن يتبع المسلمون ملّة الصليبيين ، ويرتدوا خاسرين عن دين الله - معاذ الله - .

وتقتضى سنة الكون الربانية ، أن يظل الحق مدافعاً للباطل إلى يوم الدين ، وغير تلك الحقيقة مما يخادعون به أنفسهم من دعاوى الوفاق والحوار / ماهى إلا شطحات إبليسية ، مايأتى بها شرع الموحدين بالله العلى العظيم .



فماذا حدث للمسلمين : عندما حكم الصليب القدس الشريف؟

وعندما حكم الصليب الهند ؟

وعندما حكم الصليب الأندلس ؟

وعندما حكم الصليب الجزائر ؟

مجرد أوراق متناثرة ، نفتح بها هذا الملف التاريخى ، ولن نغلقه مادام جرح المسلمين ينزف بطلقة رصاص صليبية ، ومادامت هناك مسلمة ، اغتصبها خنزير يضع على صدره صنماً لمصلوب يدعوه باسم «الرب يسوع المسيح» .



عندما حكم الصليب
القدس الشريف

نقلاً عن يوميات جندى صليبى ، كتبها بخط يده ، ثم تلقفها القس «وليم الصورى» ، وأعدها فى كتاب ضخم ، ترجمة «د. حسن حبشى» فى جزأين ، أصدرتهما الهيئة المصرية العامة للكتاب، كتب الجندى منتشياً وسعيداً بما كتب:

فى الصباح الباكر من يوم الجمعة ١٦ يوليو ١٠٩٩م ، قمنا بهجوم شامل على البلد (القدس الشريف) دون أن نستطيع أخذها .

وفى هذه الأثناء ، تقدم واحد من فرساننا يدعى (ليتو) ، واعتلى سور المدينة ، وماكاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار إلى داخلها ، فتعقبهم رجالنا وأخذوا فى مطاردتهم ، معملين فيهم القتل والتذبيح ، حتى بلغوا هيكل سليمان (المزعوم) حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم فى دماء القتلى المسلمين .

أما القائد (المسلم) الذى كان يقوم بحراسة (برج داود) ، فقد استسلم وفتح باب البرج الذى اعتاد الحجّاج أن يؤدوا الجزية عنده .

فلما ولى حجاجنا المدينة ، جدوا فى قتل المسلمين ومطاردتهم ، حتى (قبة عمر) ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا ، الذين أعملوا فيهم أفظع القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى لقد فاض المعبد كله

بدمائهم. ولما تم لرجالنا الغلبة على الكفرة (يقصد المسلمين) عثروا في المعبد على فئة كبيرة من الرجال والنساء ، فقتلوا البعض ، وأبقوا على الذين أحسنوا الظن بهم .

وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا الهيكل ، وهجموا على المسلمين رجالاً ونساء ، واستلوا سيوفهم ، وراحوا يعملون فيهم القتل ، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد ، وصدر الأمر بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة ؛ لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ، ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ؛ فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة ، بسحب القتلى خارج بيت المقدس، وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً ؟

وماتأتّى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب الوثني (يقصد المسلمين) .

●ويصف «كافين رايلي» في كتابه : (الغرب والعالم) هذه المذبحة بقوله :

«بعد أن سقطت المدينة ، وقعت المذبحة ؛ إذ ذبح كل المسلمين رجالاً ونساء وأطفالاً ، فيما عدا الحاكم وحرسه ، الذين تمكنوا من افتداء أنفسهم بالمال ، وتم اصطحابهم إلى خارج المدينة .

وفي معبد سليمان وحوله ، خاضت الجياد في الدم حتى الركب واللجام ، فقد كان حكم الله عادلاً ورائعاً ؛ ففي هذا المكان نفسه ،

ارتفعت هرطقات هؤلاء المجدفين (يقصد الضالين أى المسلمين) فى حق الله الذين يتلقى فيه دمائهم الآن» .

وقد نظم الصليبيون يوم ذاك ، مواكب النصر إلى كنيسة القبر المقدس ، وهم يبكون من شدة الفرح ، ويغنون أغانى الشكر للرب يسوع :

أيها اليوم الجديد

أيتها البهجة

أيها الفرح الجديد الدائم

ذلك اليوم خالدة ذكراه

طوال القرون الآتية

حوّل كل عذابنا ومصاعبنا

إلى فرح وبهجة

ذلك اليوم تثبيت أكيد للمسيحية

وسحق للوثنية

وتأكيد لإيماننا .

●ويصف «وليم الصورى» صاحب الكتاب ، دخول الصليبيين أرض القدس الشريف بقوله :

كان اليوم الجمعة ، كانت الساعة التاسعة صباحاً ، ولاح كأن قد تم بترتيب إلهى أن تتحقق رغبة الذين حاربوا من أجل مجد المخلّص، وانطلق الجنود يزرعون شوارع المدينة ، مشرعين سيوفهم ، فاتكين

بكل من يصادفهم من الأعداء ، لايراعون فى ذلك عمراً ولاوضعاً ، فكان فى كل ناحية مذبحة مروعة ، وفى كل ركن أكوام من الرؤوس المقطوعة ، حتى استحال السير فى كل الأماكن ، أو الانتقال من موضع إلى آخر ، إلا على جثث القتلى ، وكان الزعماء قد شقوا طريقهم إلى وسط المدينة ، سالكين طرقاً مختلفة ، ومرتكبين من المذابح فى أثناء تقدمهم ، مالايمكن التحدث عنه ، ونهج نهجهم جمع من الناس الظامئين إلى دماء العدو ، والذين لاقصد لهم سوى التدمير .

وفر المدافعون عن المدينة فى شتى النواحى ، لاينشدون غير النجاة ، ففتح الصليبيون البوابة الجانبية ، وأدخلوا بقية الناس ، ومشت هذه الجموع وحدة واحدة مسلحة تمام التسليح، وانتشرت فى كل ناحية من نواحى وسط المدينة ، وليس لها من هدف سوى بث الدمار المخيف ، وشهدت أرجاء المدينة مذبحة فظيعة الشناعة ، وكان الدم المسفوك مخيفاً ، حتى أن المنتصرين أنفسهم ساورهم الإحساس بالخوف ، وشعروا بالتقزز.

وفر الجانب الأكبر من الناس إلى فناء المسجد ؛ لوقوعه فى موضع قاص عن المدينة ، كما كان محصناً أشد التحصين، بسور ، وأبراج ، وأبواب ، لكن فرارهم هناك لم يسعفهم بالخلاص ؛ إذ سرعان مااقتفى الجند أثرهم واقتحموا المسجد فأعملوا بالمسلمين مذبحة شرسة ، حملوا بعدها كميات كبيرة من الذهب ، والفضة ، والجواهر .

أما القادة الآخرون ، فقد ترامى إلى علمهم ، بعد فتكهم بكل من صادفهم فى شتى نواحى المدينة ، أن الكثيرين فروا إلى أطراف المسجد الطاهر ، فأسرعوا كما لو كانوا على اتفاق فيما بينهم ، وانطلقوا بتعقبونهم ، ودخل المسجد حشد من الفرسان بخيولهم والمشاة ، فَذَبَحوا ذبح الشياه كل من لجأ إلى المسجد يبتغى الحماية، وأعملوا القتل فيهم ، لم تأخذهم رحمة بأحد ما ، حتى فاض المعبد كله بدماء الضحايا.

وكان ذلك قضاء عادياً من الرب ، أمضاه فى من دنسوا هيكل السيد ، بشعائرهم الخرافية ، وحَرَّموه على شعبه المؤمن، فكان لابد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت ، وأن تطهر الأماكن المقدسة بدمهم المراق .

وكان من المستحيل أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يستولى عليه الفزع ، فقد كانت الأشلاء البشرية فى كل ناحية ، وغطت الأرض دماء المذبوحين ، ولم تكن مطالعة الجثث ، وقد فارقتها الرؤوس ، ورؤية الأعضاء المبتورة المبعثرة فى جميع الأرجاء ، هى وحدها التى أثارت الرعب فى النفوس ، بل كان هناك ماهو أبعث على الفزع ، ألا وهو منظر المنتصرين أنفسهم وقد تخضبوا بالدماء ، فغطتهم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم ، فكان منظراً مروعاً ، بث الخوف فى قلوب من قابلوهم .

ويقال إنه قُتِل داخل ساحة المسجد وحدها ، عشرة آلاف من المارقين (يقصد المسلمين) ، بالإضافة إلى أن القتلى الذين تناثرت جثثهم فى كل شوارع المدينة وميادينها ، لم يكونوا أقل عدداً ممن ذكرناهم .

وانطلق بقية العسكر يجوسون خلال الديار ، بحثاً عمن لازال حياً من التعساء الذين قد يكونون مختفين فى الأزقة والدروب الجانبية ؛ فراراً من الموت ، فكانوا إذا عثروا على واحد سحبوه على مشهد من الناس ، وذبحوه ذبح الشياة .

وجعل بعض العسكر من أنفسهم عصابات ، انطلقت تسطو على البيوت ، ممسكين بأصحابها ، ونسائهم ، وأطفالهم ، وأخذوا كل ماعندهم ، ثم راحوا يقتلون البعض بالسيف ، ويقذفون بالبعض الآخر من الأمكنة العالية ، فتتهشم أعضاؤهم ، ويهلكون هلاكاً مروعاً ، ويبقرون بطون البعض الثالث ، بحثاً عما يكونون قد خبأوه فى أمعائهم من قِطَع ذهبية ، أو جواهرَ ثمينة ، يُحتمل أن يكونوا قد ابتلعوها . وهنا تم ماجاء فى مزامير داود (٦٨ : ٦١) :

«وسلم للسبى عزه وجلاله ليد العدو»



عندما حكم الصليب
المسلمين فى الهند

بالخبث ، والدهاء ، والمكر ، والاستضعاف ، وبالمخادعة ، ولين الجانب ، وتمثل الخلق الحسن ، وباختراق الصفوف الأولى لمسرح الحكم ، تسلل نصارى بريطانيا إلى الهند المسلمة عبر عشرات السنين ، حتى تمكنوا من السلطة والحكم ، ولكن باسم الملك المسلم .

وأنشأوا شركة الهند الشرقية ككل الشركات العاملة اليوم فى بلادنا ، وهى فى حقيقتها أوكار للتخابر ، والتجسس ، وإثارة الفتن داخل الشعوب .

وعن طريق الشركة ، استأجروا العملاء ، وقدموا الرشاوى، وأسكتوا الأصوات ؛ حتى ملكوا زمام المبادرة فى أعمال التجارة والاقتصاد .

وعن طريق الشركة ، وطدوا العلاقات مع الوجهاء وذوى النفوذ ، عن طريق الحفلات ، والمؤتمرات ، والأوسمة ، والنياشين ، والترقيات[1] .

---

(١) كما يحدث اليوم تماماً فى بلادنا ، من خلال التوكيلات والشركات الغربية ، المعروفة باسم عابرة القارات .

وأيضاً يحدث ذلك من خلال الاتحادات والنقابات ، والجمعيات ، والأندية، وكل المحافل التى ترفض دين الإسلام.

وعن طريق الشركة ، انتشروا فى ممالك الهند ، وأقطارها، وقراها، وأمصارها ، وأصبح لهم فى كل شبر من الأرض المسلمة عين تخون أهلها .

حتى تسلَّطوا على الكبار، وأصموا بنفوذهم آذان الصغار، وجهروا بلا روية أو مهادنة : إن النصرانية لابد أن تجنى ثمرة جهد أبنائها فى هذه البلاد .

« فشحنوا صدروهم بالشحناء الباطنة ، بعدما تسلطوا على ممالك الهند وأمصارها ، وأذلوا أعزة رؤسائها ، ولم يذروا فيها من يبدى رفضه ، وهموا بأن يُنَصِّروا كل سكانها »[1]

فسطَّر أحد موظفى الشركة رسالة قال فيها :

« شكراً للرب الذى مكن لانجلترا أن يرفرف علم المسيح على الهند كلها » .



---

(١) دكتور عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند (ص ٤٠٢) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

● ويحكى د. عبد المنعم النمر ، تفاصيل هذا المخطط الصليبى فيقول :

لقد تيقن أهل الهند أن الإنجليز سيحولونهم إلى النصرانية، متخذين من التجويع والإذلال وسيلتهم إلى ذلك ، كما فعلوا مع اليتامى الذين فقدوا آبائهم فى مجاعة عام ١٨٣٧[١]، وكان القسيسون يتقاضون مرتبهم من الشركة ، وكبار الموظفين من الإنجليز يستغلون مركزهم فى تحسين صورة المسيحية لصغار موظفيهم الواقعين تحت سيطرتهم ، كما كانوا يجمعونهم فى بيوتهم بالقسس ، ويحاولون التأثير عليهم ، وجذبهم للدين المسيحى ، وبلغت هذه الدعاية أقصى حد ، حتى لم يعد الموظفون الهنود يأمنون على دينهم ، وكان المبشرون يوزعون الكتب مجاناً ، وهى محشوة بالطعن على عقائد أهل الهند وزعمائهم الدينيين ، كما كانوا يذهبون إلى اجتماعات الهندوس والمسلمين فى حماية البوليس ، ويأخذون فى تحقير عقائدهم دون مبالاة ، والناس يسمعون كل هذا ، وتثور أنفسهم ، ولكنهم يخشون سطوة البوليس .

ونشط المنصرون كذلك فى فتح المدارس التنصيرية بعون من الشركة ، يعلمون فيها النصرانية ، حتى تأكد الناس أن الغرض من فتح هذه المدارس أن تكون شبكة لاصطياد أولادهم ، وتنصيرهم ،

---

(١) صورة قديمة لما حدث فى الصومات المسلم مؤخراً .

كما كانوا يمتحنون التلاميذ فى الكتب الدينية المسيحية ، ويسألون الصغار :

- من ربكم ؟

- من ينجيكم ويفديكم ؟

ولاينجح إلا التلميذ الذى يجيب حسب عقائدهم ، فيعطونه الجوائز والهدايا . ثم فتحوا بعد ذلك مدارس للبنات ، دعت إلى التحرر والسفور ، ورفع الحجاب ، وكان مثل هذا الأمر شئ حساس بالنسبة للمسلمين فى الهند حينذاك ، بل وربما للهندوس أيضاً .

فلما تيقن الناس من صدق حدسهم تجاه أهداف الإنجليز فى بلادهم، باتوا يطلقون على كل من يتعامل معهم «القسس السود »، إذ أصبحت الوظائف الصغيرة ، التى تركت للهنود، لايمكن الحصول عليها إلا بشهادة من هؤلاء القسس .



● ويعلق المؤرخ الأمريكى «إدوارد تومس» على هذا الحدث فيقول :

«سيق ٨٥ جندياً إلى المحكمة العسكرية ، تحت مراقبة الحراس ، وحكم عليهم جميعاً بأن تعرى أجسادهم جميعاً ، وأن يكبلوا بالأصفاد ، وأن يتركوا بلا طعام ، وكان منظراً مؤلماً ، ارتجفت له

قلوب الرفقاء ، إذ كان بينهم من خدم هؤلاء الصليبيون خدمات جليلة، ومنهم من حارب فى صفوفهم ، ولقى الشدائد والأذى فى سبيل إرضائهم .

ولكنهم كانوا جميعاً ينتمون إلى دين الإسلام ؛ ولذا فقد صدر القرار أن يموتوا هكذا جوعاً وعطشاً وذلة ، وهم عرايا كما ولدتهم أمهاتهم مكبلون فى القيود أمام أعين الجميع ، حتى علّق اللورد «كايننج» حاكم الهند العام ، على هذا الحكم الذى شارك فى إصدراه بقوله :

«بلغ هذا الحكم من السفاهة ، مبلغاً لايوجد له نظير فى تاريخ الهند» .

● ويصف المؤرخ الأمريكى «إدورد تومس» هذا التعصب الصليبى فيقول :

«كان كل جندى متهماً بالاشتراك فى الثورة ، ويقتل نساء الإنجليز وصبيانهم ، سواء كان بريئاً أم مذنباً ، بعيداً عن المعركة أم قريباً منها ، حتى أن الواحد منهم يُسأل فى «بيشاور» بباكستان ، عن مقتول إنجليزى فى «هلى» (بالهند).

ثم يستطرد قائلاً :

لقد تطورت مذابح الإنجليز ، حتى باتوا لايكتفون بالشنق، بل كانوا يُغلِقون عليهم بيوتهم ثم يشعلوا فيها النار ؛ فيصيرون رماداً

● وكتب مندوب صحيفة (تايمز أو إنديا) قائلاً :

لقد تركت السير فى شوارع «دلهى» ، بعدما رأيت بالأمس حادثاً مفجعاً ، رأيت جثمان أربع عشرة امرأة من النساء المحجبات ، ملقاة فى الطريق ، وقد قتلهن أزواجهن خوفاً على عفتهن من الجنود الإنجليز ، ثم قتل الأزواج أنفسهم بجانبهن[1] .

● وكتب «دى لين» مدير نفس الصحيفة يقول :

نقلاً عن أجندة أحد الجنود :

«كان المسلمون يحاطون بجلود الخنازير ، ثم يخيطونها عليهم ، أو يُدَلكوهم بشحومها ، ثم يشعلون فيهم النار وهم أحياء كما كان يُجبر المسلمون على أن يفعل أحدهم الفاحشة فى أخيه .

وسوف تظل هذه التصرفات وصمة عار على جبين المسيحيين الإنجليز ، لاتمحى على مر الأيام[2]» .

● ونقلاً عن رسالة للضابط الصليبى «لورد روبرت» ، أرسل بها لأمه يقول :

«سافرنا من «بشاور» إلى «جلهم» مشاة ، نقتل المسلمين فى الطريق ، ونجردهم من الأسلحة ، فلما وجدنا أنهم لايبالون بالشنق ،

---

(١) وهكذا لم يأت بجديد ، عبدة الصليب فى الصرب والكروات ، وهم يفعلون مافعله آباؤهم اليوم مع المسلمين.

(٢) المصدر السابق (ص ٤٥٧) .

كنا نشدهم على المدافع ، ثم نطلقها ، فتتناثر أجسامهم. ولاريب أن هـذا أسلوب فظيع ، لكن لامندوحة لنا عنه ، وقد حدث يوماً أن انتبهنا على رعد المدفع ، وفى الوقت نفسه سمعنا أنيناً ، فعلمنا أن أحـد الضبــاط عبأ مدفعه، وشد على فوهته أحد المسلمين ثم أطلقه ، فتناثرت أجزاء الرجل فى الهواء فأصاب رأسه المتطاير أحد المارين ؛ فصرخ من شدة الألم .

وحين شاع القتل ، والإحراق ، والنهب بدون تمييز ، وتحولت المقاطعات الشمالية بخاصة إلى جحيم ، أصدر الحاكم الإنجليزى العام أمراً لجنوده بتجنب إحراق القرى ، كما أمر بعدم تعذيب المسلمين الذى لايحملون سلاحاً ، وسلب حق الشنق العام ، من سلطة بعض الحكام الذين أساءوا التصرف فى استعماله ، فأطلقوا عليهم هازئين لقب «الملك العطوف ، ولم يمتثلوا لأوامره» .

● ويروى «إدوارد تومس» محادثة تمت بين المستر «تومسن» والسير «هنرى كوتن» عن أحوال المسلمين فى السجون، فقال الأول :

أتانى ذات ليلة عسكرى من طائفة السيخ[1] ، وبعدما حيانى بالتحية العسكرية خاطبنى قائلاً :

---

(١) السيخ : هم هؤلاء الطائفة التى تعبد النار فى الهند ، ويتولون تذبيح المسلمين نيابة عن عبدة الصليب ، وبعدما استباحوا الأموال والأعراض ، هجموا على المساجد فهدموها وأنشأوا مكانها محارق لحرق الموتى، وكانت آخر جرائمهم، تلك الفعلة النكراء بهدم مسجد البابرى الشهير تحت حراسة جنود الحكومة الكافرة هنا .

ألا يحب الرئيس أن يطمئن على أحوال المسجونين ؟

فقمت وهرولت مسرعاً ، فرأيت المسلمين الأشقياء عراة مطروحين على الأرض ، يلفظون آخر أنفاس حياتهم ، وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ، وأجسادهم ملتهبة من أثر الحريق بواسطة النحاس الملتهب، من رؤوسهم إلى أقدامهم ، تفوح منهم روائح كريهة .

فلما رأيت هذا المنظر المفزع ، أشفقت عليهم لسوء حالهم ، ورأيت أن أريحهم من هذا العذاب ، فأطلقت عليها الرصاص من مسدسى .

● ونقلاً عن سطور من كتاب قائد قواد الجيش البريطانى (٤١ سنة فى الهند) ، كتب يصف حال مدينة (دلهى) يوم أن دخلها فى ٢٤ سبتمبر ١٨٥٧ فقال :

«كان المسير من (دلهى) فى نور الصباح الباكر ، وكان منظراً هائلاً ، خرجنا من القلعة من بابها الذى يسمى باب لاهور ، ومررنا بالشارع الكبير الذى هو مركز البلد وأكبر أسواقها (جاندنى چون) .

لقد كانت (دلهى) فى الحقيقة مدينة الأهوال ، ليس بها داع ولامجيب ، فلا صوت إلا صوت سنابك الخيل ، ولم يقع بصرنا على عرق ينبض ، أو عين تطرف ، لم تكن هناك إلا جثث هامدة مبعثرة هنا وهناك ، وقد كانت فى أوضاع مختلفة صنعها صراع الحياة مع الموت فى أدوار مختلفة .

كنا لانتكلم إلا همساً ؛ حتى لانزعج هؤلاء الأشقياء الذين كانوا مستغرقين فى نومة الموت ، إن مارأيناه من المناظر كانت هائلة

مفزعة ، وكانت مؤسفة محزنة ، وقد كانت بعض الجثث تنتهشها (كلاب) ، وكان عند بعضها (نسر) يرفرف بجناحيه ، ويحاول أن يطير ، فلا يستطيع ، لفرط الشبع والثقل . وقد كان بعض الأموات يتراءون أحياء، فقد رفع بعضهم يده في الاحتضار ، فبقيت مرفوعة، كأنه يشير إلى جانب .

لقد كان منظراً مهيباً موحشاً لايمكن تصويره ، وكأن خيلنا قد استولى عليها الذعر ، فكانت تجفل وتنتفخ مناخرها ، وقد كان المحيط كله مروعاً ، يغص بروائح مضرة تبعث الأمراض[1] »

● ويسجل الشيخ (أحمد حسين المدنى) -أحد شهود العيان- سلوك الصليبيين الإنجليز قائلاً :

«إنى لاأجد وصفاً أعبر به عن أعمال البشاعة ومافيها من خسة ودناءة ، ارتكبها أهل الصليب ، فقد أمروا خونة السيخ أن يفعلوا أفعالاً شاذة قبيحة مع المسلمين ، على أعين الناس، وَعَلَقوا رؤوس الشهداء وجثثهم على الأشجار ، بداية من مسجد (فتح) حتى (باب القلعة) ، وحولوا مسجد (شاه چهان) إلى مكان للقمامة» .

● ثم يقول الشيخ «فضل حق خير أبادى» أحد علماء الهند الكبار.

«بهذه الروح الخبيثة ، روح التشفى والانتقام ، انهالوا على (دلهى) وأهلها يدمرون ، ويقتلون ، وينهبون ، حتى بلغ عدد قتلى

---

(١) أبو الحسن الندوى : المسلمون فى الهند (ص٧٦، ٧٧) - دار الفتح - دمشق ١٩٦٢ .

المسلمين (٢٧) ألفاً ، وتحولت معظم أحيائها أنقاضاً ، والمساجد خراباً ، وتكدست الجثث فى الشوارع ، وجرت الدماء فى الساحات أنهاراً» .

● ويقرر «إدوارد توماس» حقيقة مهمة بقوله :

«لقد تحمل المسلمون النصيب الأكبر فى الظلم ، قبل الثورة وبعدها ، وتحملوا من ضروب التنكيل والانتقام مالم يتحمله غيرهم .

ففى (دلهى) قبض على الملك وأسرته جميعاً ، وسيقوا مقيدين فى ذلة وانكسار ، وفى الطريق ، أطلق الضابط الصليبى (هيدسين) الرصاص على ثلاثة من أبناء الملك ، ثم قطعوا رؤوسهم ، ثم سولت للذين يدعون لحضارة نفوسهم بالبشاعة ، إلى حد تشمئز منه النفوس فحينما قدموا الطعام للملك وهو فى السجن ، كانت مفاجأة مذهلة عندما كشف الغطاء فلم يجد طعاماً ، بل وجد رؤوس أبنائه الثلاثة .

وهنا تمالك الشيخ الضعيف نفسه فى رباطة جأش وقال :

- إن أبناء التيموريين البواسل يأتون هكذا إلى آبائهم محمرة وجوههم .

ثم أخذوا الرؤوس ثنية ، وعلقوها على بوابة كبيرة فى (نيودلهى) تسمى الآن (فونى دروازه) أى بوابة الدماء» .

●ويقول المؤرخ (سبنسربول) شاهداً على جرائم أهل الصليب :

«إن الإنجليز عندما استولوا على (دلهى) نصبوا المشانق فى الشوراع ، وصلبوا (٣٠٠٠) رجل مسلم ، كان منهم (٢٩) من

الأسرة الحاكمة» .

● ولعل أفضل تلخيص لموقف عبدة الصليب ، المتقربون إلى يسوع المسيح المتقربون بدم المسلمين ، هو ذاك الطلب الذى تقدم به القائد الإنجليزى «الفنسين نلكسون» إلى سيدة «إدوارد كايننج» الحاكم العام للهند :

«علينا أن نسن قانوناً
يبيح لنا إحراق المسلمين
وسلخ جلودهم ، لأن
نار الانتقام لاتشفى
الغليل ، ولاتخمده ، بالشنق
وحده.»(١)



---

(١) أحمد چان رحيم الله : الشيخ محمد يوسف النبورى وآثاره - رسالة ماچستيرغير منشورة ، كلية أصول الدين . جامعة الأزهر .

عندما حكم الصليب أوربا
محاكم التفتيش فى الأندلس

تأسست هذه المحاكم بدءاً من عام ١٢٤٢ ميلادياً فى إيطاليا ، فرنسا ، ألمانيا ، ثم انتقلت على مر السنين إلى بلاد أخرى كثيرة ، بقصد محاربة أى فكر كَنَسى آخر يعارض أو لايتوافق مع فكر الكنيسة الكاثوليكية فى أوربا .

وقد أنشئت لهذه المحاكم الكبرى ، محاكم فرعية صغيرة فى أديرة الفرنسيكان والدومينيكان(١) برئاسة الأساقفة والمطارنة وعضوية القسس والرهبان ، إذ تجاوزت هذه المحاكم البحث عن الدلائل أو القرائن أو الشهود ، وفتحت باب الاتهام بالشبهات ، ومايضمره بعض القسس والرهبان من أفكار مخالفة للكاثوليكية .

كانت تبدأ المحاكمات فى أول عهدها. بإبلاغ المتهم ، واستدعائه، ومواجهته ، ثم تركه للتعبير عن توبته ، ثم تطورت سريعاً إلى فرض قرارات إدانة لاتقبل الرد ، يتم بموجبها القبض على المتهم ، وسجنه دون حاجة إلى مواجهة باتهام أو أسباب اعتقال ، إنما يطلب منه

---

(١) لكل من الفرنسيسكان والدومينيكان والكومبونيون كنائس فى مصر، ومركزها الرئيسى فى قلب القاهرة بشارع رمسيس - ميدان الإسعاف عمارة فايزر / أمام نقابة المحامين .

الاعتراف خلال ثلاثة أيام بجريمته (التى لايعرفها أصلاً - وأن يعلن توبته عن ذنبه الذى ارتكبه - وهو لايعرفه أصلاً .

فإذا هو اعترف بذنب نصحه به أحد الرهبان ، أو أحد الشمامسة من الحراس ، عوقب جزاء خطئه وارتكاب إثمه ، فإذا لم يعترف ، أو أبى أن يتهم نفسه بشئ ليس فيه ، أحيل إلى التعذيب حتى الموت .

وحتى يخيفوا هؤلاء الذين يرفضون الكاثوليكية ، أو يشتبه فيهم إضمار السوء لها ، وعدم الانصياع لها ، كانت تصدر أحكام الإعدام بالجملة بصفة يومية ضد المسلمين فى هذه البلاد رمياً بالرصاص فى مهرجانات ضخمة يحضرها القساوسة ، ورجال الدولة، والأهالى، وكثيراً ماكان الملك يحضر بنفسه ، ليبارك عمل الكنيسة.

أما عائلات المسلمين فكان يتم حرقهم فى محارق ضخمة أسموها «مواكب الموت» .

● ويروى «الكولونيل ليمونسكى» ، أحد ضباط الحملة الفرنسية[1] فى أسبانيا ، تجربته مع محاكم التفتيش هناك فيقول :

---

(١) كان نابليون قد أصدر مرسوماً عام ١٨٠٨ بإلغاء كنائس التفتيش فى أسبانيا ، فتصدى رهبان الجزويت لهذا المرسوم ، وأصدروا فتوى كنسية بقتل كل فرنسى يتمكنون منه ؛ لإرهابهم وإخراجهم من أسبانيا ثانية . ولأن الشئ بالشئ يذكر ؛ فإن للجزويت عدداً من الكنائس الضخمة فى مصر اليوم يمارسون من خلالها دعوتهم الخبيثة

كنت عام ١٨٠٩ (أى منذ ١٨٤ عام فقط من الآن - ١٩٩٣) ملحقاً بالجيش الذى يقاتل فى أسبانيا[١] ، وكانت فرقتى من بين فرق الجيش الذى احتل العاصمة مدريد ، وبينما أسير فى إحدى الليالى ، أجتاز شارعاً يقل المرور فيه، إذا بمسلحين قد هجما علىّ يريدان قتلى ، فلم ينقذنى منهم إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالطواف فى المدينة ، ومن ملابسهما تبين أنهما جنود من كنيسة التفتيش ، فأسرعت إلى الماريشال «سولت» الحاكم العسكرى لمدريد، وقصصت عليه النبأ ، فأصدر قراراً بتنفيذ حكم الإمبراطور بإغلاق هذه الكنيسة ، وحل ديوانها ، ثم أمر بقيادة ألف جندى وأربعة مدافع لمهاجمة الديوان .

وفى الرابعة صباحاً ، قصدنا الديوان ، فلم يشعر الرهبان إلا والجنود يحيطون بالدير ، وكان عبارة عن بناء ضخم أشبه بقلعة حصينة وأسوار عالية ، تحرسها فرقة من الجنود اليسوعيين[٢] .

---

(١) كان القتال ضد المسلمين ؛ لنزع الأرض المسلمة منهم ، واحتلال المساجد والآثار الإسلامية ، وتحويلها إلى كنائس وأديرة ؛ حتى لم يبقوا على معلم من معالم المسلمين إلا النذير .

(٢) اليسوعيون هم إحدى الطوائف الصليبية الكبرى ، ولها فى مصر عدة كنائس ، وتتميز بنشاطها الدعوى جهراً .

تقدمت إلى باب الدير ، خاطبت الحارس الواقف على السور وأمرته باسم الامبراطور أن يفتح الباب ، فانتظر وقتاً، ثم انهال علينا الرصاص[1] من كل جانب ، فقتل وجرح بعض رجالى ، فأمرت باقتحام الدير بالقوة ، وأسرع الرهبان إلينا من الداخل مرحبين بنا ، ووجوههم باشة ، يستفهمون عن سبب قدومنا على هذا النحو ، وكأنه لم يدر بينى وبينهم قتال منذ لحظات .

أمرت الجنود بالقبض عليهم ، ثم بدأنا البحث عن قاعات التعذيب المشهورة داخل الدير ، وفحصنا ممراته وأقبيته كلها ، فلم نجد شيئاً يدل عليها ، فعزمنا على الخروج يائسين ، ولكن «الليفتنانت دى ليل» استمهلنى قائلاً :

- أيسمح لى الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته بعد ؟

قلت : قد فتشنا الدير كله ، ولم نجد شيئاً ؛ فماذا تريد ؟

- : إنى أرغب فى فحص أرضية هذه الغرف ، فإن قلبى يحدثنى أن السر تحتها ورفعت الجنود أبسطة الأرض، ثم صبوا الماء بكثرة فى كل غرفة على حده ، فإذا بالأرض تبتلع كل الماء المتدفق فيها ، يتسرب إلى أسفل ، وإذا بالباب ينكشف ، وتظهر حلقة صغيرة ، وضعت إلى جوار مكتب الرئيس ، فُتِح بها الباب ، فظهر لنا سلم يؤدى إلى باطن الأرض .

---

(١) إذ كانت كنيسة اليسوعيين - كالكنائس الأخرى - بمثابة قواعد قتالية دفاعية .

أسرعت إلى شمعة كبيرة ، يزيد طولها على متر ، كانت تضيئ أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين .

هممت بالنزول ، وضع راهب يسوعى يده على كتفى متلطفاً وقال:

- يابنى ، لاتحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال ؛ إنها شمعة مقدسة .

قلت له : ياهذا ألا يليق بيدى الملوثة بدم القتال ، أن تُنَجَّس بلمس شمعتكم الملوثة بدم الأبرياء ؟

هبطت على درج السلم ، يتبعنى الضباط والجنود شاهرين سيوفهم، فإذا بنا أمام غرفة كبيرة مربعة ، هى عندهم قاعة المحكمة، فى وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة ، ربطت بها سلاسل ؛ لتقييد الضحايا .

ثم توجهنا إلى غرف صغيرة فى حجم الإنسان ، بعضها رأسى وبعضها أفقى ، كانت مخصصة للسجناء يقضون فيها حياتهم حتى الممات ، ثم تبقى الجثث فى سجنها الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم ، فقد شاهدنا عدة هياكل بشرية ، مازالت فى أغلالها سجينة .

كان القتلى رجالاً ونساء ، تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين ، واستطعنا إنقاذ بعض السجناء الأحياء ، وتحطيم أغلالهم وهم على آخر رمق من الحياة .

وجدنا من أصابه الجنون ؛ لكثرة مالقى من العذاب ، ومن كان عارياً كما ولدته أمه ، حتى اضطر الجنود لخلع أرديتهم؛ ليستروا بها بعض النساء السجينات .

انتقلنا إلى غرف أخرى ، رأينا نيها ماتقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام ، وسحق الأجساد ، كانوا يبدأون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، حتى تأتى الآلة على البدن المهشم كله ؛ فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة .

عثرنا على صندوق فى حجم رأس الإنسان تماماً ، توضع فيه رأس المعذب بعد أن يربط بالسلاسل فى يديه ورجليه ، ثم تُقَطْر على رأسه نقط من الماء البارد من ثقب أعلى الصندوق ، فتقع على رأسه بانتظام ، حتى يلفظ أنفاسه مجنوناً .

عثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى «السيدة الجميلة» ، وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من أعضائها سكاكين حادة ، كان يطرحون الشاب المعذب فوق الصورة ، ثم يطبقون عليهما باب التابوت ؛ حتى يتمزق جسد الشاب ويقطع إرباً .

عثرنا على آلات لتقطيع اللسان ، وأخرى لمتزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب ، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا ؛ حتى يتناثر اللحم عن العظم .

فلما انتقل الخبر إلى العاصمة مدريد ، توافد الألوف ؛ ليروا مارأيناه ، حتى خُيِّل إلينا من شدة الزحام أننا فى يوم القيامة .

فما أن رأى الناس بأعينهم وسائل التعذيب وبشاعة الآلات التى كانت تُستخدم باسم الرب يسوع المسيح ، انطلقوا كمن به مَسٌ ، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ، ووضعوه فى آلة تكسير العظام ، فَدُقَّت عظامه ، وسُحِق سحقاً ، ثم أمسكوا كاتم سِرِّه وَزَفوه إلى «السيدة الجميلة» وأطبقوا عليهما الأبواب ، فمزقته السكاكين شر ممزق ، ولم تمض نصف ساعة ، حتى قضى الشعب على ثلاثة عشر راهباً .

وعثرنا على أسماء ألوف الأغنياء فى سجلات الديوان الكنسى السرية ، ممن قضى الرهبان بقتلهم باسم الصليب ؛ كى يبتزوا أموالهم، أو يضطروا لكتابة إقرارات تحول ثرواتهم إلى خدام الرب يسوع(١) .



وحسبنا أن نسوق بعض الأرقام للدلالة على هول هذا الاضطهاد الصليبى الدامى ، معتمدين على المؤرخ «لورنتى» الذى أتيح له

---

(١) محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (ص٣١٢ - ٣١٨) بتصرف / دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة .

البحث بمطلق الحرية فى أرشيفات محكمة التفتيس فى أسبانيا ، التى مارأت النور فى غير عهد الإسلام على مدى تاريخها الطويل.

● يقول «لورنتى» :

ألقت محكمة التفتيش أكثر من (٠٠٠و٣١) نفس فى النار و ٠٠٠ر٢٩٠ عقوبة تلى الإعدام .

ولاتشمل هذه الأرقام ، الذين أودت بحياتهم فروع هذه المحكمة الأسبانية فى مكسيكو ، وليما بأمريكا الجنوبية ، وقرطاجة ، صقلية، سردينيا ، أوران ، مالطا(١) .

أما عن عقوبة الإلقاء فى النار ، فقد أقيمت محارق عدة فى الميادين العامة بالمدن الكبيرة ، وكانت تنظم لها مهرجانات واحتفالات ، يشهدها الأحبار وأبناء الكنيسة والملوك أحياناً ، كأنها أعياد يطرب لها الناس ، ولايجدون فى مناظرها مايدعو إلى الضيق والاشمئزاز(٢) .

ولم تخلُ هذه الفترة من حياة البشرية من الصراعات المريرة بين أبناء الكنيسة بعضهم البعض ، فيذكر التاريخ القريب ، فى القـــرن

---

(١) توفيق الطويل : الاضطهاد الدينى فى المسيحية - (ص٨٦) - الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة .

(٢) المصدر السابق - (٤٠) .

السادس عشر ، مذبحة شهيرة باسم «مذبحة سان بارثليمو» ، تدل على تعصبهم الأعمى لمذهبياتهم العقدية ، وتأصل روح العنف الدفين داخل هذه الكناس .

تبدأ قصة المذبحة ، عندما أراد تشارلز التاسع عام ١٥٧٤ ملك فرنسا ، أن يعقد اتفاقاً مع طائفة «الهيجونون» يضمن به الوفاق بينهما ، فتوج هذه الرغبة بتزويج أخته من زعيم لهم. فأثار ذلك الحدث ثائرة الكاثوليك ، وعقدوا العزم على التنكيل بهذه الطائفة ، التى أرغمت تشارلز التاسع على قبول هذا التزويج .

وفى منتصف ليلة ٢٤ أغسطس ، دق ناقوس كنيسة «سان چيرمان» فى قلب باريس ، مؤذناً ببدء المذبحة ، فإذا بأغنياء الكاثوليك ، والحرس الملكى ، وجماهير الكنيسة ، ينقضون على البيوت والفنادق التى تقيم فيها «الهيجونون» ، فأتوا عليهم ذبحاً .

فلما أصبح الصبح ، كانت شوارع باريس تجرى بدماء ألفين من القتلى ، وتطايرت أنباء المذبحة المروعة إلى الأقاليم ، فإذا بكنائسها الكاثوليكية تدق هى الأخرى أجراسها ، وتستحيل بدورها إلى مجزرة ، أتت على دماء ثمانية آلاف آخرين من هؤلاء المساكين .

وقد وقع ذلك الحدث ، موقع الغبطة والسرور والرضا فى أوربا الصليبية الكاثوليكية كلها ، فكاد «فيليب الثانى» يُجَن ، من فرط الفرح ، وانهالت التهانى على «تشارلز التاسع» ، وأمر البابا «جريجورى الثالث عشر» بِسَكّ أوسمة ونياشين ، لتخليد ذكرى هذه المذبحة .

وَرَسَمَتَ على هذه الأوسمة صورة البابا ، وإلى جانبه ملك يضرب بسيفه الرقاب ، وكُتِب عليها «إعدام الملحدين » .

كما أمر البابا بإطلاق المدافع ، وإقامة القداس فى شتى كنائس أوربا ، ودعا الفنانين لتصوير مناظر المذبحة المقدسة على حوائط الفاتيكان[١] .

---

(١) التعصب والتسامح - (ص ٣٢٥ - ٣٢٦) .

والفاجعة الكبرى ، أن طائفة «الهيجونون» لم يكونوا غير طائفة «البروتستنت» التى تدين هى الأخرى بالصليب .

وقد أصدر البروتستنت قراراً عام ١٦٨٨ ، أى بعد قرن كامل من هذه الفاجعة ، بجعل البروتستنتية هى الدين الرسمى لانجلترا ، وبحرمان الكاثوليك من القيام بعباداتهم ، دون كل طوائف العقائد الأخرى التى توجد على أرض انجلترا[١] .



(١) المصدر السابق (ص١١١) .

عندما حكم الصليب الجزائر

فى ظل الوهن والخيانات التى أصابت شعوب المسلمين وحكامهم، اجتمع الصليبيون فى أوربا ، وقرروا تقسيم بلاد المسلمين فيما بينهم، وباسم الرب يسوع ، وقعوا جميعاً على القسمة المحرمة ، ودقت أجراس الكنائس ، وتعالت الابتهالات والترانيم ، وأوقدت الشموع ، وشرب الجميع خمر يسوع المقدس ، وأكلوا سوياً قرابين الدم ، ثم توجه كل ملك من ملوكهم ؛ ليحط برحاله فوق الأرض الطيبة ، لينجس أرضها بِشرِكه ، وَخَمره ، وفساده .

وكانت الجزائر من نصيب الصليبية الفرنسية .

وكانت وسائل الإعلام الصليبى والصهيونى والعميلة ، جاهزة لتبرير هذا الاحتلال؛ فقالت الكاتبة الفرنسية «كوليت چانسون»[(١)] :

«لقد صار من العسير على فرنسا أن تتراجع بعد أن فتحت الجزائر فتحاً باركته المسيحية جمعاء (...) إننا نضع فى الجزائر أمة لن تعرف المدنية بدوننا (...) أليس من واجبنا أن نحمل شعب الجزائر على اعتناق العقيدة الفرنسية ؛ حتى يلمسوا السعادة الروحية التى يهيئها المستقبل لشعب فرنسا»[(٢)] .

---

(١) بالاشتراك مع الكاتبة الفرنسية «فرانسين چانسون» : الجزائر الثائرة - ترجمة محمد علوى الشريف وآخرين ، دار الهلال المصرية ١٩٥٧ .

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠) .

وقد حاول الصليبيون أن يقهروا هذا الشعب المسلم على تغيير لغته ، وعاداته ، وتقاليده ، تمهيداً لتغيير عقيدته ، لكن محاولاتهم باءت بقسط كبير من الفشل، حتى ضاقوا ذرعاً بالتعامل مع العقول.

وبعد عامين كاملين ، لم يجد صليبيو فرنسا غير استخدام الحديد والنار ، وبدأ إجرامهم بإبادة قبيلة بأكملها ، تحت دعوى اتهام أحد أفرادها بارتكاب جريمة سرقة ، ثم تحقق بعد أن تمت عملية الإبادة ، أن المتهم برئ .

وَوَصَفَت التقارير الرسمية التى أرسِلت إلى العاصمة باريس هذه الجريمة الشنعاء فقالت :

«بناء على تعليمات الجنرال «روفجيو» ، خرجت قوة من الجنود من مدينة الجزائر ، فى ليل ٦ أبريل ١٨٣٢ (منذ ١٦٠ عاماً) وانقضت قبيل الفجر على أفراد القبيلة ، وهم نيام تحت خيامهم ، فذبحتهم جميعاً بغيرما تمييز فى الأعمار والأجناس ، وعاد الفرسان الفرنسيون من هذه الحملة ، وهم يحملون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم»[١] .

وقد كان هذا العمل الإجرامى كافياً ؛ ليصبح عادة يتبعها الحكام الصليبيون من بعده ، وسابقة يسيرون على هديها ، حتى باتت عمليات إبادة الجزائريين المسلمين شيئاً يستحق الفخر والتهنئة ، والمباركة من الكنيسة فكتبت إحدى الصحف الفرنسية (مثلاً) فى أكتوبر ١٨٣٦م قائلة :

---

(١) المصدر السابق (ص٢١) .

أرسلت إلى باريس مؤخراً ، عشرون رأساً ؛ ليبلغ عدد الرؤوس التى وصلت إلى معسكر العمليات ثمانية ، وستين رأساً ، وهى معلقة على سناكى البنادق . إنها لصفقة عظيمة وبداية طيبة تفتح لنا الطريق» .

ويعلق الچنرال الفرنسى «شانجارنييه» قائلاً :

إن رجالى وجدوا التسلية فى قطع رقاب المسلمين من رجال القبائل الثائرة فى بلدتى «الحراش» ، «بورقيقه» .

● وفى تقرير كنسى جاءت هذه السطور :

«إن كل الماشية قد بيعت إلى قنصل الدنمارك ، أما باقى الغنيمة، فقد عُرضت فى سوق «باب عزون» حيث عرضت أساور النساء وهى مازالت تحيط بمعاصمهن المقطوعة ، والأقراط تتدلى من قطع لحم آدمى ، وقد بيعت بأكملها ، ووزع ثمنها» .

● ثم يستطرد التقرير الكنسى نفسه قائلاً :

«وفى ليل ذلك اليوم ، أصدر البوليس أوامره إلى أهل المدينة ، بإضاءة الأنوار فى حوانيتهم ، علامة على الابتهاج»[(١)] .

وفى عام ١٨٤١م تولى الحكم فى الجزائر المسلمة، الچنرال الصليبى (يوجو) ، يعاونه الچنرال (بليسيه)، والچنـــرال (سانــت

(١) المصدرالسابق (ص ٢١) .

أرنو) و (شانجارينيه) و (دى هيريسون) و (مونتانياك) و (لاموريسيير) و (كافينياك) .. وكلهم من ذوى السوابق فى الأعمال الوحشية»[1] .

● فقد كتب أحدهم مثلاً (سانت أرنو) ، فى خطاب لأسرته بفرنسا يقول :

«إن هذه البلاد بديعة ، وهى من أجمل مارأيت فى أفريقيا ؛ فقراها متقاربة ، وأهلوها متحابون (....) لقد أحرقنا فيها كل شئ، ودمرنا كل شئ ، الحرب (...) الحرب ، أواه منها ، ماأكثر من هلك فيها من نساء ، وأطفال هاجروا إلى جبال الأطلس ؛ فقضوا نحبهم بين ثلوجها ، بتأثير البرد والبؤس» .

● وفى رسالة أخرى لزوجته عام ١٨٤٣ يقول :

«إنى أفكر فيكم جميعاً ، وأكتب إليكم ويحيط بى أفق من النيران والدخان ؛ لقد كنت فى قبيلة «البزار» فأحرقت أفرادها جميعاً ، ونشرت حولهم الخراب ، وأنا الآن عند «السنجا» ، أعيد فيهم الشئ نفسه ، ولكن على نطاق أوسع ، لكأنى فى سرداب تكثر فيه الخيرات» .

● ويقول الكونت «دى هيريسون» ، فى كتاب له بعنوان «اقتناص الرجال» :

---

(١) المصدر السابق (ص٢٦) .

«فى عام ١٨٥٧ أخذت الغيرة تأكل قلب «الماريشال راندون» ، مماكان زميله الماريشال «سانت أرنو» يقوم به من أعمال التنكيل ، فأغار على قبيلة بتجريدة قوامها ٢٥ ألف جندى ، لتدريبهم على أعمال القتل ، ونشر الحرائق ، كما كان يعمل أسلافه .

● وكتب «مونتانياك» فى كتاب له بعنوان «رسائل جندى» :

«لقد قطعت رأسه ومعصمه الأيسر ، ووصلت إلى المعسكر برأسه مثبتاً على رمحى ، ومعصمه عالق ببندقيتى ، وقد أرسلتهما إلى الچنرال «باراجواى» الذى كان يعسكر بالقرب منا ، وإنك لتتصور كيف كان ابتهاجه بذلك» .

وفى موقع آخر يقول :

«إن أولاد سعد كانوا قد تركوا نسائهم وأولادهم فى (الأحراج) ، وقد كان يمكننى أن أقضى عليهم جميعاً ، ولكن لم يكن عددنا كافياً للتفرغ لهذا ، بل كان علينا أن نوجه اهتمامنا إلى من كانوا يطلقون النار علينا .

لقد كانت مذبحة شنيعة حقاً ، كانت المساكن ، والخيام فى الميادين ، والشوارع ، والأفنية التى انتشرت عليها الجثث ، فى كل مكان . وقمنا بعمل إحصائية فى جو هادئ بعد الاستيلاء على المدينة ، فبلغ عدد القتلى من النساء والأطفال (٢٫٣٠٠)، أما عدد الجرحى فلا يكاد يُذكر ، لسبب يسير ، هو أننا لم نترك جرحاهم على قيد الحياة .

وكان جنودنا يخافون وصول الرصاص إليه من قبو خفى أو من باب موصد ، أو من خلف متراس على سطح ؛ فكانوا يندفعون إلى داخل المساكن ويفتكون بلارحمة بكل شئ يجدونه أمامهم ، وكان من العسير عليهم - فى مثل هذه الأحوال - التمييز بين الأعمار والأجناس ، بل كانوا يضربون فى كل صوب دون إنذار أو تنبيه»(١)

● وكتب الكونت (دى هيريسون) :

«فظائع لامثيل لها ، أوامر بالشنق تصدر من نفوس كالصخر ، وقلوب كالحجر ، أوامر بالرمى بالرصاص أحياناً ، وباستعمال السيف أحياناً أخرى فى أناس مساكين ، جل ذنبهم أنهم لايستطيعون إرشادنا إلى مانطلب إليهم أن يرشدونا إليه» .

● ثم تحكى «كوليت چانسون» مؤلفة كتاب (الجزائر الثائرة) فتقول :

«وتصل الحال على هذا المنوال حتى ١٨٤٥م ، إذ تبلغ الهمجية شأوها ، تندثر المثُل الإنسانية وتتلاشى ، ويحتاح الجزائر لون جديد من ألوان البربرية ، والخسة ، والإجرام ، والوحشية (فى حق المسلمين العزل) .

ففى ذلك العام ، أدخَل نظام الإبادة ؛ للقضاء على الشعب الجزائرى ، طريقة جهنم ، وماأدراك ماجهنم .

---

(١) المصدر السابق (ص٢٦ ، ٢٧) .

وقد نشأت هذه الطريقة أول مانشأت ، عن محض الصدفة ، ولكن سرعان ماأصبحت نظاماً من أنظمة الجيش المعمول بها فى مهمته ، ضد المسلمين .

ففى يونيو ١٩٤٥ كانت قبيلة (أولاد الرياح) قد تلقت من القائد الفرنسى أمراً بالتسليم ، ولكن القبيلة بدلاً من الامتثال للأمر ، لاذت بالفرار إلى المغاور والكهوف ، لتستأنف الجهاد والمقاومة .

فلما ضيّق القائد «بليسيه» الخناق على أفراد القبيلة ، وهم فى بطن أحد الكهوف ، واشترطوا عليه سحب القوات الصليبية ؛ ليخرجوا إليه ، رفض هذا الشرط ، وقرر أن يصب عليهم نار جهنم ؛ ليصلوها سعيراً .

وأنى للقلم أن يصف هذا المشهد الجبار العاتى ؛ فالقوات الفرنسية تتقدم تحت جنح الليل البهيم ، صوب فجوة الكهف يسدونها بالمتاريس ، ثم يقذفون النار بداخلها ويشعلونها من حولها ، وهؤلاء هم العرب والمسلمون المعتصمون فى جوف الكهف ، تنطلق منهم الأنات والصرخات ، فتصم الآذان .

وتولول النساء ، ويصرخ الأطفال ، وتنعق الحيوانات، وتحترق الصخور ؛ فتنهار ، تتنتشر منها الأتربة تخنق الجموع .. وتتناثر الجنادل ، فتصيب الرؤوس ، وتنفجر الذخائر ، فيعم الدمار ، وتنتشر جثث الموتى ، وبرغم كل هذا ، مازال الرجال يجاهدون للخروج من بطن الأرض ، فتنطبق عليهم ويقبرهم الجماد » .

ثم تستطرد كاتبة (الجزائر الثائرة) فتقول :

ويقبل الصباح ، وتتولى فرقة من الجنود الفرنسيين (يتدلى الصليب على صدورهم) معاينة الأتون الذى صبوا فيه النيران فى أثناء الليل ، فيرتد منهم البصر من هول مايرون ، ففى مدخل الغور انتشرت هياكل ثيران ، وحمير ، وخراف حدت بها الغريزة صوب مخرج الكهف ، لاستنشاق الهواء الذى عُدِم بالداخل ، وتكدست بين هذه الحيوانات ومن تحتها جثث رجال ، ونساء ، وأطفال ، وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه ، وقد أمسكت يداه قرن ثور نافق، وبجواره امرأة ميتة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت ، ممايدل على أن الرجل قد اختنق وهو يدافع عن امرأته وطفله اللذين اختنقا أيضاً، من هجوم الثور عليهما أثناء الحريق .

وفى سراديب هذه المغاور الفسيحة ، وجد الجنود الفرنسيون (٧٦٠) جثة ، أخرجوا منها (٦٠) مسلماً يعانون سكرة الموت ، مالبث أربعون منهم حتى قضوا نحبهم ، وعشرة منهم حملتهم سيارات الإسعاف ، والباقون أطلق سراحهم ليعودوا إلى مساكنهم ، عبرة لمن لايعتبر ، ولم يبق من حطام الدنيا ، سوى الدمع القانى يذرفونه على الدمار العميم(١) .

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٨ - ٣٠) .

وشغلت هذه الجريمة البشعة ، الرأى العام الصليبى فى أرجاء أوربا ، والذى يرفع شعارات الماسونية «الإخاء ، الحرية ، المساواة» ، فتقدم أحد الماسون الفرنسيين باستجواب لمجلس الأعيان الباريسى ، حول ماأسماه «قتل مبيت مع سبق الإصرار ، ضد (عدو) أعزل مهزوم» .

وكان كل مادافع به القائد «بليسيه» عن نفسه رداً على هذا الاستجواب ، هو قوله :

لقد جاءنى الأمر بذلك من الماريشال «بوجو» ، وأطلع المجلس على صورة الأمر ، ثم قرأه قائلاً :

«أورليا نفيل - ١١ يونيو ١٨٤٥م .

إذا احتمى هؤلاء الرعاع فى الكهوف ، فأفعلوا بهم مافعله «كافينياك» من قبل ، وأحرقوهم حرق الثعالب» .



ولم يكن هذا الإرهاب الصليبى القذر موقوفاً على مثل هذه الصور الإجرامية ، بل كان هناك خطاً إرهابياً آخر أكثر جرماً ، وأحط فعلاً ، تمثل فى محاولة فرض عقيدة الصليبية على مسلمى الجزائر جبراً ، وبمباركة الكنيسة .

ففى عام ١٨٣٢م منذ بداية الاحتلال الصليبى للأرض المقدسة ، أعلن القائد «روفجيو» عن تحويل أجمل مساجد الجزائر إلى كنيسة ، فوقع الاختيار على جامع «القشاوة» الذى يقع فيما يعرف بالحى الأوربى وسط مدينة الجزائر .

وتحدد ظهر يوم ١٨ ديسمبر ١٨٣٢م لإنجاز هذا العمل ، وتقدمت فى الموعد المحدد إحدى طائرات الجيش ، أنزلت فرقة من سلاح المهندسين ، توجهت مباشرة إلى محاصرة أبواب المسجد «بالبُلَط» و «الفئوس» وبداخل المسجد أربعة آلاف مسلم ، كانوا قد اعتصموا داخل المسجد خلف متاريس .

ثم اندفعت القوة العسكرية تسبقها سناكى البنادق ، فخر المسلمون جرحى وصرعى تحت أرجل الجنود ، واستمرت هذه المذبحة طوال الليل ، حتى إذا جاء الصباح ، صار الجامع «كاتدرائية الجزائر» .

ومإن انتهى الجنود من وضع الصليب على كل باب من أبواب المسجد ، وفى نشوة هذا الانتصار للرب يسوع المسيح ، دارو على أعقابهم صوب مسجد «القصبة» ، الغنى بذكريات الإسلام وأيامه المجيدة ، فدخله الجنود والضباط ، وأقاموا فيه شعائرهم الدينية .

إلى أن انتهى القداس المجيد ، شرع القساوسة فى تمجيد إله الجيوش ، وترتيل أنشودة الغفران .

ولعمرى ، إذا ساغ للجنود الجهلة ، أو لضباطهم العابثين ، أن يأتوا مثل هذه الأفعال النكراء ، فكيف يسوغ للقس «شوسية» وهو الوكيل العام لأسقف الجزائر ، أن ينضم إليهم ويتزعم طابورهم؟ »[1]

.



وقد أعد هذا القس ، عام ١٨٣٩م ، كتاباً أسماه «رسائل مفيدة ومشوقة عن الجزائر» وجه الكلام فيه إلى ملك فرنسا ، فقال :

«إن مسيو «ڤاليه» رجل عميق التفكير ، ذو ضمير حى ، لاتنقصه الحيلة ، إنه يحكم الجزائر كأكثر الملوك إطلاقاً فى الحكم ، إنه الرجل الذى ليس للمستعمرة غنى عنه ، إنه يرغب فى أن يستتب الدين المسيحى ، وأن يحترمه الجميع ، إنه يريد أن يضاعف من عدد الصلبان والكنائس فى الجزائر .

إن مولاى ليستطيع أن يفعل مايشاء ، مع رجل مثل المسيو «ڤاليه» الذى اختار أجمل مساجد القسطنطينية ؛ ليجعل منه أجمل كنيسة فى المستعمرة» .

وكان الاختيار قد وقع على هذا القس (الإرهابى) «شوسيه» ليكون راعياً لهذه الكنيسة التى كانت مسجداً ، وماإن أُطلقَت يداه؛ ليعـد لنفسه منبراً للوعـظ ، حتى استولى على منبر للرسول ﷺ ،

---

(١) المصدر السابق (ص٤٠) .

أتى به من مسجد يقال له «المقدس»، وعلى هذا المنبر النفيس ، وقف سكرتير الحاكم «بوجو» يقول:

«إن آخر أيام الإسلام قد دنت

وفى خلال عشرين عاماً ، لن يكون للجزائر

إله ، غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا أن

نشك فى أن هذه الأرض تملكها فرنسا ،

فلا يمكننا أن نشك على أى حال ، أنها

قد ضاعت من الإسلام للأبد .

أما العرب ، فلن يكونوا ملكاً لفرنسا ،

إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً. (١)



---

(١) المصدر السابق (ص٤١) وراجع أيضاً : چوان جليسبى (ترجمة عبد الرحمن صدقى) ثورة الجزائر (ص ٧٨) إصدار الدار المصرية للتأليف والترجمة/ القاهرة .

الأندلس وعبرة الأيام
من الماضى .. إلى الحاضر

وأخيراً

إلى أن تأتينى رسائلكم وأبحاثكم لنضيفها إلى هذا الملف الدموى، أبدأ بهذه الإضافة التى نشرتها صحيفة اللواء الأردنية فى ٢١ رجب ١٤١٣ هـ - ١٤ يناير ١٩٩٣ ، بقلم الأستاذة الدكتورة بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمن) فى سلسلة مقالتها «شاهدة عصر» تحت عنوان :

الأندلس وعبرة الأيام

من الماضى إلى الحاضر

كتبت تقول :

انتهى (عام أسبانيا) وبرامج الاحتفال به ، ولم ينته الحديث عن ضياع الأندلس . وأعلم أن كثيرين منا يضيقون بالحديث عن الماضى ويضجرون تحريك السواكن لتاريخ مضى وراح .. وأدرك مع ذلك أن صرف الحديث عن نهاية الأندلس بانتهاء (عام أسبانيا) تعطيل لعبرة الأيام وإضاعة لحكمة التاريخ ، وغفلة عن السنن الثابتة للأسباب والعواقب ، مصداقاً للآية المحكمة : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ .

فيما كنت أجمع نفسى لحديث اليوم عن ضياع الأندلس . دوّت

آفاق العالم الجديد بالإنذار عن (وشك إفلات الفرصة الأخيرة للسلام فى جمهورية البوسنة والهرسك) ان لم يفلح الضغط الباهظ على رئيسها فى حملة على التخلى عن تمسكه بمبدأ استقلالها ، وقبوله الخطة المقترحة من المبعوثين الدوليين : «ديڤيد أوين ، وسيروس فانس» وتقضى بتقسيم جمهورية البوسنة إلى عشرة أقاليم للحكم الذاتى وحكومة مركزية محدودة السلطات ، وأكدا أن البديل عن خطتهما ، حرب أهلية مدمرة بلا نهاية ، وأذاعت وكالات الأنباء أن زعيمى الكروات والصرب وافقا على مبدأ التقسيم مع المطالبة بتعديل حدود الأقاليم العشرة طبقاً للواقع ، وليس طبقاً للخطة المقترحة التى رفضها رئيس المسلمين ، لأنها تقضى بأن يخضع لسيطرة الصرب أكثر من نصف أرض البوسنة والهرسك.

وبهذا الرفض ، يواجه المسلمون عزلة دبلوماسية قاسية ، ويتحملون تبعة ضياع الفرصة الأخيرة للسلام . وكان الرئيسان «جورج بوش وفرانسوا ميتران» قد صرحا فى مؤتمر صحافى عقداه قبل ذلك الإنذار بيومين ، بأنهما اتفقا على منح الجهود الدبلوماسية فرصة أخيرة للسلام .. وأعرب الرئيس بوش عن أمله فى أن يتوصل مجلس الأمن بأقصى سرعة إلى قرار البديل العسكرى والحظر الجوى فوق البوسنة . (الأهرام : ١٩٩٣/١/٥) .

واتجهت إلى تاريخ الأندلس ، أروى حديث الماضى إلى الحاضر .

❁

ولاأريد اليوم أن أوغل فى جراح أمتنا بمحنتها بمن أضاعوا الأندلس ، بعد أن طال حديثى فى هذا الموسم من (عام أسبانيا) عن ظلمهم أنفسهم ومافرطوا فيه من أمرهم ، مع مايأخذنى من رحمة بهم وأسى عليهم ، ومايشجينى من مشاركة وجدانية لهم فى محنة خروجهم من جنة الأندلس.

حسبى أن استحضر هنا مشاهد الخروج الحزين يوم توقيع وثيقة تسليم «غرناطة» آخر مابقى لهم من جنة الأندلس التى عمرت بهم مئات سنين ، اختزلتها لحظة تعسة كأنها دهر ...

- الزمان : ضحى الثلاثاء ، ثانى شهر ربيع الأول سنة ثمانمائة وسبع وتسعين للهجرة ثالث يناير سنة ألف وأربعمائة واثنتين وتسعين، بالتقويم الرومى .

- المكان : قصر الحمراء على منحدر جبل شلير المشرف على ربوع غرناطة الساحرة ومروجها الواسعة ربوع غرناطة الساحرة ومروجها الواسعة ، وشعاع من شمس الضحى يخترق سحب الشتاء ويمزق غيومها الرمادية ، ليجلو أبراج الحمراء العالية ، ويفسح أمام النوافذ آفاقاً لاحدود لها ، ويكشف عن جدران القصر بنقوشها العربية وقبابها ذات الزخارف - العجيبة الموشاة باللازورد والأرجوان والأبريز - وحيثما اتجه البصر خشع لكلمات الوحدة الزخرفية لنقوش القباب وجدران الابهاء :

.. (لاغالب إلا الله) ..

وهنالك .. فى أبهاء القصر وقاعاته الفاخرة بقايا نابضة بالحياة لمن أعجلهم الرحيل فى جنح الظلام ليلة التسليم ، وعلى الأرائك والحشايا معازف ملقاة مكفأة ، ترجع فى الصمت الحزين نشيج بكائيات شجية ، ونواح وداع لارجاء فيه لعودة ولاأمل فى لقاء على إيقاع صدى من موشحة شاعر غرناطة الوزير «لسان الدين ابن الخطيب» :

جادك الغيث إذا الغيث همى

يازمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حلما

فى الكرى أو خلسة المختلس

وعلى باب مسجد قصر الحمراء ، وقف خمسمائة من أعيان غرناطة ، القضاة والفقهاء والعلماء قد أقاموا فيه صلاة الضحى للمرة الأخيرة ، ثم انزووا فى ركن هناك ترهقهم غبرة القهر والحسرة فى انتظار اللحظة البائسة ، ليكونوا شهود وثيقة التسليم ، وليأخذهم بعدها «الملك فرديناند» رهناً كما أراد ، حتى يستوثق من أهل غرناطة .



وتتناوح أرجاء قصر الحمراء بأعلام الأبواب والطبول عن وصول موكب «الملك فرديناند ، ملك قشتالة وكبير الاسبنيول» ويدخل الملك فى تاجه وصولجانه وحاشيته ، شامخ الهامة بادى الكبرياء ، فلا

يلبث أن يطاطىء رأسه ويحنى هامته فى تهيب ورهبة ، إذ يستقبله عند مدخل رواق الأسود سادس ملوك غرناطة من بنى الأحمر ، السلطان المقهور «أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسين على بن السلطان سعد بن الأمير على بن السلطان يوسف بن السلطان محمد الغنى بالله / ابن الأحمر / ويتقدمه إلى قاعة عرش ملوك غرناطه .

وحانت اللحظة الرهيبة :

تقدم حامل الوثائق ومسجل العقود ، فأعلن أن ماتضمنته وثيقة التسليم قرأت على أهل غرناطة مضمنة بما شاءوا من شروط وافق عليها الملك . وأن صاحب رومة يضمن الالتزام بالشروط والوفاء بها، إذا مكنوه من حمراء غرناطة وأعمالها والمعاقل والحصون حولها.

ونزل سلطان غرناطة مضمنة بما شاءوا من شروط وافق عليها الملك . وأن صاحب رومة يضمن الالتزام بالشروط والوفاء بها ، إذا مكنوه من حمراء غرناطة وأعمالها والمعاقل والحصون حولها .

ونزل سلطان غرانطة «أبو عبد الله بن أبى الحسن على ابن الأحمر» عن الحمراء ، بعد أن وقع وثيقة التسليم . قال المؤرخون :

ونصب النصارى أعلام مملكة قشتالة والأرجون وسنجاق مارى يعقوب على أبراج الحمراء ، ثم زينوا مسجدها بحلية العبادة الكاثوليكية .

كانت شروط التسليم سبعة وستين شرطاً فى مصادرنا لتاريخ المغرب والأندلس ، منها : تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال ، وابقاء المسلمين فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، وإقامة شريعتهم فلا يحكم على أحد منهم إلا بشريعة الإسلام ، وأن المساجد والأوقاف والمدارس ، تبقى كما كانت عليه ، وأن لايؤمر عليهم من ليس منهم ، وأن يفك جميع من أسر منهم فى غرناطة حيث كانوا ، وفى مقدمة من يشترط فكهم من الأسر ، الأعيان الخمسمائة الذين أخذهم الملك رهناً . وأن من هرب من المسلمين المشردين من أنحاء الأندلس ودخل غرناطة فلا سبيل عليه لمن أسره ولالغيره ، ومن أراد الجواز إلى العدوة - المغربية - فلا يمنع . وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره ، ولايجبر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم . وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله .. ويحضر له حاكم - أى : قاض - من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ماأراد ، وأن لايعاقب من قتل نصرانياً فى قتال أيام الحرب ، ولايكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ، ولايحكم عليه بالتغريب لأى جهة من الجهات ، وأن ترفع عن المسلمين جميع المظالم والمغارم ، وأن لاتنتهك حرمة المساكن والمساجد فلا يطلع أحد على دور المسلمين ولايدخل غير المسلم مسجداً من مساجدهم وأن يسير المسلم فى بلاد النصارى آمناً فى نفسه وماله ، ولاتجعل له علامة كما يجعل لليهود ولايمنع مؤذن

ولاصائم ولامصل من أمور دينه ، ومن ضحك سخرية منه ، يعاقب .. وأن يوافق على كل هذه الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ..

فأما مال هذه الوثيقة بعد التوقيع عليها والتصديق عليها من صاحب روما ، فأترك القول فيه لشهود من الفرنج علماء التاريخ والحضارات ، وقد عقد «العالم الفرنسى سيديو» من أعلام الفرنسيين الذين أرخوا للعرب والإسلام بأقلام نزيهة ونهج مستقيم . وتشغل «غرناطة» وأمجادها وآثارها العمرانية والحضارية مباحث ذات عدد من كتابه القيم (موجز تاريخ العرب) - الذى أشرف على ترجمته وطبعه ونشره «على باشا مبارك» وزير المعارف سابقاً - كتب «سيديو» بعد الثناء على بنى الأحمر ووصف عظمة غرناطة .

كان فرديناند - فى مفاوضاته مع السلطان أبى عبد الله ابن الأحمر - قد طلب منه تسليم غرناطة بعد شهرين إن لم يأت إليها مدد فى بر أو بحر ، فخاف السلطان من قيام أهلها عليه وسلمها قبل الموعد إلى فرديناند الذى رتب له اقطاعات فى مملكته ، لكنه أقام فى صحراء أفريقية لما ركبه من العار والذلة ...

ولم يكن فرديناند يقصد بشروط تسلمه غرناطة إلا الظفر بها والاستيلاء عليها ، لإجراء هذه الشروط التى منها إقرار حرية التدين فإن المسلمين بكثرتهم وغناهم وحبهم للاستقلال ، ربما منعوا نفوذ حكمه فيهم ، فصمم على أن يسلبهم العبادة الإسلامية والأخلاق العربية شيئاً فشيئاً . خشية أن لاينجح مقصده إن هو

أخذهم بذلك بغتة لأول وهلة وقد بث فيهم مبشرين بالنصرانية يزينون لهم الدخول فيها ليستظلوا بحماية - الكنيسة الكاثوليكية - ويندمجوا فى المجتمع النصرانى السمح النبيل ، وتسلط فى الوقت نفسه على اليهود بأشد النكال، إرهاباً للمسلمين أن يحيق بهم مثله .

وتجلد المسلمون للمحنة وكأنهم رأوا فيها كفارة عما سلف من خطايا الظلم والبغى والفتنة حتى صدر القرار بطرد من لم يتنصر منهم من «غرناطة» وتطهير جميع بلاد الأندلس وأسبانيا من فلولهم الذين احتملوا البقاء فى ديارهم بعد أن تملكها الفرنج فتظاهر المسلمون بالدخول فى دين النصرانية والذهاب إلى الكنائس ، ماعدا سكان الجبال الذين جهروا بالعصيان وشهروا السلاح فهزمهم الملك هزيمة ساحقة ، وأخذ أموالهم وأتلف مزارعهم وشردهم أعيان النصارى من دورهم ..

❀

وأمسك عمداً عما ذكر العالم «سيديو» من أهوال محاكم التفتيش التى أحيل عليها المسلمون جميعاً دون استغناء ، من سنة ١٥٥٢ م إلى سنة ١٦٠٩ م حيث تم إجلاؤهم جميعاً من الأندلس وسائر الأرض الأسبانية . بعد أن عمرت بهم ربوعها مئات سنين ، كانت فيها مهد مولدهم ومدرج طفولتهم وملعب حداثتهم ومغنى صباهم ، ومثوى آبائهم وأجدادهم ، ومجمع ذكرياتهم وأمانيهم وسجل أمجادهم ، وقال العالم «سيديو» فى ختام المشاهد الفاجعة لهذا المبحث من كتابه :

وقد أحصى بعض المؤرخين - من شهود العصر - عدد المسلمين الذين أخرجوا من أسبانيا منذ تسليم غرناطة سنة ١٤٩٢ م إلى سنة ١٦٠٩ م بثلاثة ملايين كانوا نخبة أهل زمانهم وأعظمهم صناعة وعلماً وفناً ، فدرست معالم عز أسبانيا ومصرنيتها ، وتفوقها ونهضتها ..

وفى تاريخ العالم الفرنسى «الأستاذ جوستاف لوبون» لحضارة العرب فى أسبانيا الإسلامية ومحنة اجلائهم عنها ، مزيد تفصيل وبيان لمن يعنيه من أبناء امتنا اليوم الاعتبار بتاريخها ووعى حديث ماضيها فى الأندلس إلى الحاضر المشهود من صبر عالم اليوم على سجل العار لمأساة التطهير العرقى فى شعب البوسنة والهرسك حتى تتم تصفيته النهائية قتلاً وتعذيباً لرجاله ، واغتصاباً لبناته ونسائه ، وتشريد الأطفال بغير هوية إلى منافى التغريب والضياع .

وعندئذ يصدر القرار الدولى لمصير جمهورية البوسنة والهرسك ، والحظر الجوى للعاصمة (سيراييفو) تأميناً لوصول المعونات الإنسانية إلى سكانها ، ومكافأة لابطال العالم الجديد وتغطية لخزى العجز عن نجدة مئات الفلسطينيين ، أسرى إسرائيل فى المخيم الثلجى على حدودها الآمنة ، رهناً لإخماد تمرد حماس على أفاعيل الطاغوت .

وتواصل ندوات المجامع الإسلامية والمنظمات العربية جهودها المعلنة ، فى مساعيها الحميدة لشجب طغيان إسرائيل ، وجهودها

المشكورة فى دراسة الوضع الشرعى والقانونى والاجتماعى لمواليد الاغتصاب المنظم لخمسين ألفاً من مسلمات البوسنة والهرسك .

وأتلو من آيات ربى فى (سورة القمر) ..

(ولقد جاءهم من الأنبياء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغن النذر) صدق الله العظيم.

